حول مقال الدكتور طه حسين

عن حافظ وشوقي

بقلم الاستاذ محمد خورشيد
أستاذ الأدب العربي

ألقيت الآن من يدى هلال ديسمبر بعد ما قرأت فيه مقال الدكتور طه حسين عن الشاعرين الكبيرين حافظ وشوقى ، ذلك المقال الذى رأيت فيه من الاضطراب الأدبى ما حدا بى إلى كتابة هذه المجالة خدمة للأدب والحقيقة .

قبل كل شيء لابد لى من القول بأن الكتابة عن شوقى وحافظ معاً ، ليست من الانصاف والعلم ، والتاريخ فى شيء ، لأنهما يتباينان جداً من حيث متانة اللغة ، والعبقرية ، والإنتاج ، والنشأة ، ولا أنكر أن فى وسع المؤرخ الأدبى المقارنة بين هذين الشاعرين ، ولكنه ينتهى من مقاله دون توفية الموضوع حقه ، لأن المقارنة شيء ، ودراسة الشاعر والبحث العلمى عنه شيء آخر .

يعترف الدكتور طه حسين فى مقاله بأنه كان يؤثر حافظاً على شوقى عندما كانا يرفلان بثوب الحياة ، ويريد — وهو يملى مقاله — أن ينسى إيثاره حافظاً بالمودة والحب الخالص ، ثم يعترف بأن مؤرخ الآداب بنوع خاص يصعب عليه جداً التجرد من عواطفه ، وشهواته ، وميوله ، وأهوائه فى الأدب ، والفن ، ويقول : « واعلم بعد ذلك أنى إنما ذكرت عواطفى التى كانت تعطفنى على حافظ بالحب ، والمودة ، وتصرفنى عن شوقى بعض الشيء لتعلم أنت ماقد أعجز عنه أنا من الانصاف ، ولتعلم أنت ماقد أتورط فيه أنا من الغلو والاغراق » .

فى هذه العبارات اعتراف صريح بإملاء عاطفته عليه مقاله فى حافظ وشوقى ، وهل من الممكن أن يتجرد الانسان من ميوله وعواطفه ويكبتها ما بين طرفة عين والتفاتتها ؟ كان يجب على الدكتور المحترم أن يستبدل الفعلين المضارعين بعد حرفى التقليل فى جملته الأخيرة بفعلين ماضيين ليؤكد لنا عجزه عن الانصاف وتورطه فى الغلو والاغراق .

ومما حيرنى فى مقال الدكتور قوله « تجديد شوقى يستحيل شيئاً فشيئاً إلى تقليد ، حتى إذا كانت أعوامه الأخيرة كانت قصائده كلها تقليداً ظاهراً للقدماء من الشعراء ، لايتستر فيه ولا يحتاط ، ينشيء القصيدة ، فلا تحتاج إلى تعب أو مشقة ، لتجد القصيدة القديمة التى يحاكيها . سم هذا معارضة أو محاكاة أو تقليداً ، فذلك عندى سواء ، لأنه ينتهى إلى نتيجة

واحدة وهى أن الشاعر ، قد رجع إلى القدماء يلتمس عندهم مثله الأعلى »

تلك لعمرى كلمات لا يقرها المنطق ؛ وهل للكاتب الأديب أن يدلنى على مفكر ينكر معه أن شوقى بنى مجده وارتقى إلى سماء العبقرية والخلود فى غير أعوامه الأخيرة بعد عودته من المنفى فى أسبانيا ؟ ومن من القدماء يا ترى قلده شوقى فى نظم الأغانى الخالدة التى كان لها الفضل الأكبر فى تهذيب أذواق الناطقين بالضاد فى القرن العشرين ؟ ومن ذا الذى يقول : إن روايات شوقى التمثيلية الثمان التى لم يسبقه إلى مثلها شاعر عربى آخر ، والتى نظمها بعد عودته من الأندلس ، هى تقليد ظاهر للقدماء ؟ .

أما قول حضرة الدكتور : إن كل قصائده فى أعوامه الأخيرة تقليد ظاهر للقدماء فهو حرى أن ينسب إلى مؤلفى الأقاصيص والخرافات ، لا إلى مؤرخى الأدب العربى ؛ لأن كلمة « كل » دقيقة الاستعمال جداً فى التاريخ وقلما نجدها فى كتب المؤرخين المدققين ، ولا أظن الدكتور طه حسين يجهل هذه الحقيقة البسيطة ، وهو الذى كان أستاذاً للتاريخ القديم فى الجامعة المصرية قبل أن يصبح أستاذاً للأدب العربى فيها .

ألف شوقى بعد عودته من منفاه ، أى فى مدة إثنى عشر عاماً ونيف خمسة عشر مؤلفاً ، اربعة أخماسها مؤلفات شعرية[1] كما روى أمين سره السيد أحمد عبد الوهاب ؛ فهل لحضرة الدكتور أن يدلنا على الكتاب الذى قلد به شوقى القدماء ؟ اللهم إلا كتابه أسواق الذهب الذى قلد به القدماء فى سجعهم ، وبذهم من حيث سهولة اللغة ، وسمو الفكر والخيال فحبذا لو أتبع الدكتور طه حسين المجدد طرق المجددين فى الأدب ، ودعم كل حقيقة ذكرها بما يؤيدها من البراهين ، والحجج الدامغة لأن المجددين لا يليق بهم إرسال الكلام على عواهنه .

ثم نرى الدكتور طه حسين ينعى فى مقاله على شوقى عدم مقارعته خصومه ، وعدم نهوضه لمخاصمة ناقد من نقاده ؛ وأنا أرى فى سكوت شوقى عن مناوئيه ، وإهماله أمرهم

---

(١) مؤلفاته المطبوعة : هى الشوقيات : جزءان ، وروايات مصرع كليوباترا ، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، وعلى بك الكبير ، وعنترة ، وكلها شعرية . ورواية : أميرة الأندلس النثرية ، وكتاب أسواق الذهب النثرى . أما مؤلفاته التى سيباشر طبعها فهى كتاب عظماء الاسلام (نثر) ، والشوقيات الجزء الثالث والجزء الرابع ، وروايتا : السيدة هدى ، والبخيلة ، وكشكول جامع لقصائد لم تنشر ، وقصائد سهلة للأطفال ، والأغانى الخ ، وربما استوعب الكشكول وحده ثلاثة مجلدات .

أنجع وسيلة للرد على هؤلاء، لأن شوقي إذا انحدر من عليائه إلى مستوى خصومه ، وقارعهم مقارعة الند للند ، يقبه من شأنهم ، الأمر الذي كانوا يرجونه من وراء تلك المناوأة ؛ وهم لم يتعرف إليهم الناس إلا عند ما بدأوا التعرض لشوقي وهاجموه من كل جانب مسرفين في النقد واللوم ؛ ورغم سكوت شوقي ، نبه ذكرهم ، وظل شوقي فوق عرش إمارته السامي الذي لم يهن ، ولم يتزعزع ، وها هو ذا شاعرنا النابه ، قد قضى فتهافت الأدباء على رثائه والإشادة بذكره وفضائله لأن الشعراء النابغين تبدأ حياتهم يوم يتغمدهم الله برحمته ، وكلما مرت الشهور والأعوام على وفاتهم ارتفع قدرهم ، وظهرت للباحثين المنصفين نواح جديدة من عبقريتهم ونبوغهم ، ولنضرب لك مثلا : المتنبي الذي لم يسلم من خصوم ألداء حياً وميتاً ، ولم يعترف له بالامتياز على من سبقه ، وعاصره من الشعراء إلا بعد إذ قضى معاصروه ومنافسوه ، ووكل أمر الكتابة عنه إلى أناس يملي عليهم عقلهم لا عاطفتهم ، أناس يكتبون للتاريخ لا للتزلف إلى زيد أو عمرو ، إكتسابا لرضى ، أو توصلا إلى مغنم ، وربما نال شوقي في حياته إعجابا ، لم ينله سواه من شعراء الضاد الذين سبقوه ، وسنرى الأبيات الحكمية التي يتداولها الناس الآن من نظم شوقي يضطرد ازدياد عددها باضطراد البحث في شعره، والأعوام المقبلة كفيلة بتحقيق ذلك ، وأظن حضرة الدكتور الأديب يقرني على هذا الرأي .

ويختتم الدكتور طه حسين مقاله عن حافظ وشوقي بقوله: «هما أشعر أهل الشرق العربي منذ مات المتنبي ، وأبو العلا من غير شك » ، فهذه الجملة أملاها حضرة الأديب دون تحفظ ، إذ ماهي الصلة والظروف التي تجمع شاعري القرن العشرين بالمتنبي وأبي العلاء ؟ وما هو المقياس الأدبي الدقيق الذي نستطيع أن نقيس به شاعرية شاعر بآخر دون أن نضل سبيل العدل والإنصاف ؟ فالظروف التي عاش فيها شاعرانا غير الظروف التي عاش فيها المتنبي وأبو العلا ، وعصر الآخرين غير عصر الأولين ، وهم يختلفون جداً من حيث الانتاج الأدبي قدراً ونوعاً ، هذا فضلا عن أن كلا من هؤلاء الشعراء الأربعة ، لا يمكن أن يقارن بالآخر لكثرة التباين بينهم ، وربما نغمط بعض الشعراء الذين جاءوا بعد أبي العلاء حقهم إذا فضلنا عليهم «حافظ إبراهيم» ، وربما نغمط شوقي قدراً إذا فضلنا عليه أي شاعر عربي آخر ، ولو اتسع لنا المجال في هذه المجالة لكنا أبدينا رأينا الصريح في هذين الشاعرين مؤيداً بالبراهين والأدلة ، ولكننا نترك البحث عن حافظ إلى الأعداد القادمة من مجلة المعرفة الغراء ، ونترك شوقي إلى المقال المفصل الذي سنكتبه عنه في الكتاب الذي سيجمع فيه معظم ماقيل في أمير الشعراء في جميع الأقطار العربية ، والذي سنباشر طبعه قريباً .

ولا بد لي قبل اختتام المقال من إبداء رأي أظنني مصيباً فيه ، وهو : أن يترك إخواننا

المصريون الآن البحث في شعر شوقي ، والكتابة عنه إلى أقطاب الأدب العربي في الأقطار العربية الأخرى ؛ لأن العاطفة تملي على أنصاره وخصومه من المصريين ، بحيث يسيء إلى تاريخ الأدب العربي الذي يجب أن يكون منزهاً عن المحاباة والانتقام . وأعترف أنني أسأت بقولي هذا إلى عدد من الأدباء المصريين المنصفين الكرام ، ولكنهم في نظري أقلية ، والقليل لا يقاس عليه ، والأدباء غير المصريين ، الذين تربطهم والفقيد أواصر الصداقة ، ولم يتأكل الحسد أفئدتهم ، هم - في اعتقادي - أنزه في إصدار أحكامهم على شوقي من سواهم ، وها هو ذا الدكتور طه حسين الذي يعتبر زعيماً من زعماء الأدب يعترف بأن العاطفة أملت عليه ما كتب ، أما الفئة التي أتوسم فيها إنصاف الشاعر الراحل من كل نواحي أدبه ، فهي فئة الأدباء الذين ضربوا بسهم وافر في الشعر والنثر معاً ، لأن الشاعر أدرى بفن القريض : حسناته ، وسيئاته من الناثر .

هذا ما عن لي كتابته من الملاحظات البريئة على مقال حضرة الدكتور طه حسين وجل من لا يخطىء .

محمد خورشيد

استدراك

سيدي الأستاذ المفضال

أشكركم على ما تقومون للعلم والأدب والثقافة الإسلامية والصحافة المصرية من خدمات جليلة ، وبعد فإني ألفت نظر حضرتكم إلى ما وقع في كلمتنا التي تفضلتم بنشرها في عدد ديسمبر من « المعرفة » من الاختلاط بين آيتين من القرآن الكريم ، ويدفعنا ويدفعكم الحرص على كتاب الله تعالى إلى وجوب تصحيحها : فقد جاءت الآيتان بالصحيفة رقم ١٠٠٧ على هذه الصورة :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون » .

والصواب ما يلي :

« فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ؛ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » .

فنرجو من حضرتكم أن تتكرموا باستدراك هذا الخطأ ، الذي نعتذر عن حصوله بأننا كنا نكتبه على عجل .

سيد أحمد فهمي